جوهر القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر القصص

المقدمة :

ثلاثة أمور لا يوجد إنسان إلا وهي في حياته : الماء والهواء والقصص، حتى الذي فقد قدرته على التذكر توجد قصة فقدانه لهذه القدرة، فالقصة جزء لا يتجزأ من الحياة، ولشيوع هذه الظاهرة، وعمقها، فإن هذا الكتاب هو لأجلها. وسنبحث فيه إن شاء الله شؤون القصة المختلفة، من حيث سبب ظهورها، وماهيتها واستعمالاتها، ووجودها في الأديان والمذاهب الفكرية على مرّ التاريخ.

وبما أن البداية هي عين النهاية، فإني أشعر في عمق قلبي أن جوهر القصص هو في هذه الكلمة المباركة {فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون}.

وسنقسم الكتاب إلى خمسة فصول:

الأول : في اللسان العربي وأساليب روايتها.

الثاني : في الأديان والمذاهب الفكرية، أمثلة مختارة.

الثالث : في القرآن.

الرابع : استعمالاتها.

الخامس : تأثيراتها.

وأسأل الله أن ينفعكم بهذا الكتاب، ولا قوة إلا بالله.

الأول : في اللسان العربي وأساليب روايتها

أصل القص هو القطع، والصدر من كل شيء ورأسه، وهو تتبع الأثر شيئاً بعد شيء خاصة بالليل، وفيه معنى البيان والحفظ، والدنو من الشيء، وفيه معنى ما لا يبرد ولا يثبت.

والقصة التي ندرسها هنا تحوي كل هذه المعاني من أوجه مختلفة. فهي قطع لأنها تقطع جزءاً من مشهد ما وترويه. وهي الصدر لأنها تحوي قلب الفكرة ولبّها. وهي الرأس لأنها تعمل الفكر وتزيد العلم. وهي تتبع الأثر لأنها تأتي بمواقف متعددة يتلوا بعضها بعضاً.

وخاصّية الليل لأن القصة أحسن ما تروى وتفهم في وقت الليل، ولأن الليل رمز الجهل والقصة تنير الطريق وأهل الليل هم من يحتاجون النور. والبيان لأنها تبين مقصود صاحب الفكرة بأحسن الطرق وأسلها، فالكلام المجرد قد لا يفهمه حتى العلماء، أما القصة فتنساب إلى قلب السامع حتى لو كان من أقل البسطاء في أكثر الأحيان. والحفظ لأن القصة تحفظ الفكرة وتحفظ التجربة حتى ينتفع بها كل من يسمعها، والدنو لأنها تقرب السامع إلى المراد.

وما لا يبرد لأن القصة نفسها قد تكررها سبعين مرة والعلم الذي فيها لا ينفد. وما لا يثبت لأن القصة لا تكون إلا عن ماضي وقع في الواقع أو في الخيال ولذلك فهي لا تثبت في الواقع الآني، وأيضاً لأن أكثر القصص من صنع الخيال فهي لا ثبوت لها في الواقع الجسماني.

فالجامع المشترك لما فات من المعاني هو أن القصة حاملة الفكر ومبينة له بأحسن الطرق.

وبحسب التحليل المنطقي لتطور أسلوب رواية القصة، وقبل ذلك نشوئها، نستطيع أن نعرف أن القصة بدأت برواية صاحب القصة لقصته الشخصية. ثم الرواية عن أحداث وقعت للآخرين. ثم تأليف أحداث خيالية. ثم كتابة القصة. ثم تمثيلها على المسرح. ثم تمثيلها في الأفلام. وهذه هي قمة طرق رواية الحدث وهي أن يعاد خلقه في الواقع مرة أخرى بطريقة تشبه وقوعه الأول الحقيقي، أو إظهاره للكل بأحسن الطرق فصاحب المخيلة الضعيفة قد لا ينتفع ويستمتع بقراءة قصة، ولكن حتى أبسط الناس يتأثر بمشاهدة الأفلام. ولو أردنا أن نعد أحسن ثلاثة أشياء اخترعتها الإنسانية لكانت الأفلام على رأس هذه القائمة أو فيها و لا شك.

الثاني : في الأديان والمذاهب الفكرة. أمثلة مختارة

إذا نظرنا في ديانات الشرق القديم، كالبابليين والآشوريين والكلدانيين سنجد عندهم قصص كثيرة وشهيرة، كقصة الخلق، أي خلق العالم وكيف تم، وملحمة جلجامش، وعند المصريين كقصة يوم الحساب وما سيجري فيه. ويغلب على هذه القصص أنها تحكي على سبيل الرمز الماضي الذي يتوق الإنسان إلى معرفته، إذ هو يريد أن يفهم من أين جاء. أو تحكي قصة تحوّل الناس من حياة البادية والكهوف إلى المدنية والاجتماع. أو تحكي ماذا سيقع بعد الموت من حساب وثواب وعقاب، إذ الإنسان تواق إلى فهم ومعرفة ما سيقع له بعد الموت المكتوب على الجميع.

وإذا نظرنا في كتب الهندوس، كالفيدا، وخاصة الباجهفادجيتا، باختصار الجيتا الذي يعتبر أهم وأشهر الكتب عندهم، سنرى أنه كله مجرد قصة، تحكي عن الملك كرشنا الحكيم الذي كان له صديقان لكل منهم جيش وسيتحاربان، فلم يعرف كيف يكون محايداً أو في كلا الطرفين في آن واحد، فقرر أن يخيّرهما بين نفسه وبين جيشه، فاختار أحدهما أخذ جيشه لأنه يؤمن أن القوة للكثرة المادية، واختار الآخر أن يكون كرشنا مستشاراً له لأنه يؤمن أن القوة للحكمة الروحية، وكانت النتيجة أن غلب الطرف الذي فيه الحكمة على الذي عنده المادة.

وهنا تبدأ تظهر بقوة النزعة الأخلاقية الروحية في القصص، حتى إن البعض يرى أن هذه القصة ما هي إلا رمز لتحارب قوى الجسم مع قوى العقل، وما أشبه من تفسيرات عميقة. وهي تريد أن نؤيد الروح لتغلب الجسم.

وإذا نظرنا في كتب البوذيين خاصة الزن، فسنرى أن أكثر تعاليمهم مستوحاة من قصص تروي عن المعلمين الكبار والصغار، كالقصة المشهورة عن التلميذ الذي أمره المعلّم أن يأتي بكأس، فما زال المعلّم يصبّ الماء ويصب حتى امتلأ عن آخره، وما زال يصب حتى فاض، فقال التلميذ : "يجب أن تكف فقد امتلأ الكأس" فقال المعلم : "افرغ كأسك حتى املأه لك من جديد بماء جديد" يرمز إلى عقل التلميذ الذي ملأه بكلام فارغ وتجارب ساقطة. فقال له : "إني لن أستطيع أن أعلّمك شيئاً حتى تنسى وتترك كل ما عندك من القيم حتى أعطيك الجديد".

وإذا نظرنا عند اليونان، فسنرى أن من أشهر ما أنتجوه هو ملحمة الإلياذة والأوديسة التي هي قصة لحرب اليونانيين والطراودة، وعودة أحد كبار المحاربين اليونانيين إلى بلده بعد الحرب، وكتب أفلاطون التي هي حوارات ساقها على سبيل قصة بين المتحاورين.

وإذا نظرنا عند اليهود، فسنرى أن التوراة كلها قصص، قصة الخلق وآدم ونوح وإبراهيم إلى يوسف، ثم بني إسرائيل في مصر حتى الخروج إلى موت موسى. والتلمود مليء كذلك بالقصص التي تساق للتعليم وإظهار الحكمة. والزوهار كذلك جوهره القصص على سبيل الرمز إلى العوالم الروحية.

وإذا نظرنا عند المسيحيين، فسنرى أن كتابهم المقدس هو قصة يسوع المسيح الناصري، منذ قبل ولادته حتى رفعه إلى السماء.

وإذا نظرنا إلى المذهب السنّي فسنرى أن اعتماده هو سيرة النبي والصحابة وأحاديثهم. والمذهب الشيعي يحكي القصة مختلفة عن إخوانهم الأوائل، وهل اختلفوا إلا لأن كل منهم عنده قصة ليست عند الآخر؟ وعند الصوفية تحتل القصص مركزاً مرموقاً من حيث رواية مواقف الأولياء وكراماتهم وكلماتهم حتى تكون محفزاً للسالكين، وجوهر كتب الصوفية هو رواية مثل هذه المواقف.

وإذا نظرنا عند النازية فسنرى أن هتلر قد كتب قصة حياته في كتابه "كفاحي". وهو مرجع مهم لكل من يريد أن يفهم هذا الرجل وهذا الحزب، وهو كتاب معظّم عند النازيين.

وهكذا أينما توجّهنا فسنرى قصص. لا يهم الماضي أو الحاضر، لا يوجد أحد إلا وله قصة وعنده قصص.

الثالث : القصة في القرآن

لعل تساؤل يثور في عقول القراء الكرام ويقول "لماذا تفرد باباً خاصاً للقصة في القرآن؟"

وإنه سؤال عظيم ووجيه حقاً، وإني أحب أن أجيب عنه إن شاء الله قبل البدء في شرح القصة من القرآن.

بعد اطلاعي على القصص عند كل من فات ذكرهم في الباب السابق، وجدت أنه لا يوجد كتاب من كتب الأديان الأساسية يذكر جوهر القصص وكل شؤونها كما يفعل القرآن. وحتى لا أطيل سأذكر حجة واحدة تكفي لإثبات ما قلت. فانظر في التوراة أو الإنجيل أو ما شئت من الكتب الأساسية، لا شروحات العلماء وما أشبه، فلن ترى أن التوراة تحوي آية واحدة تقول مثلاً أن قصص التوراة رموز إلى معاني روحية وليس المقصود بها التاريخ. دعونا نأخذ التوراة كمثال وقس عليها الباقي.

فهذا الزوهار الذي يعتبر أهم تفسير روحاني للتوراة التي ظاهرها مجرد قصص وأحكام مادية لا علاقة لها لا بروحانية ولا يحزنون، وكاتب الزوهار حسب الزوهار هو العالم الكبير سمعان بن يوخاي. وهذا العالم الكبير لم يجد حجة ليثبت أن التوراة رموز روحانية من التوراة نفسها. أي لم يستشهد بمقطع منها تقول فيه التوراة بوضوح "أنا كتاب رموز للأمور الروحية" وما أشبه. فماذا فعل؟ قال: "لو كانت التوراة مجرد قصص وأحكام إذاً لكان باستطاعتنا من كتب التاريخ وسجلات المحاكم أن نكتب كالتوراة بل أحسن منها، فإذاً لاشك أن التوراة أكثر من مجرد قصص عادية" فهل فهمت هذا المنطق؟

ولهذا لو جاء يهودي وقال: "لا، التوراة كلها تاريخ وأمور جسمانية، ولا يوجد روحانية وخرافات المهلوسين" لما استطاع أحد أن يرد عليه من نفس التوراة، كأن يقول له: "إن التوراة تقول "أنا أمثلة ورموز" " ولذلك حتى الزوهار الذي يفترض حسب رواية أنه ألّف في القرن الميلادي الأول، لم يظهر حتى نحو القرن الثالث عشر الميلادي في الأندلس، وبعد احتكاك اليهود بالمتصوفة المسلمين. وقبل ذلك، وقبل حدوث ظروف أخرى شديدة على اليهود لم تكن للروحانية شأن يذكر إذا استبعدنا فيلون الاسكندري.

وقل مثل ذلك في باقي الكتب، فكل هذه الكتب تحكي القصص وكأنها أمور واقعية حدثت، ولذلك جعلت اليوم من الكلاسيكيات والخرافات والأساطير القديمة. والذين يزعمون وجود تأويلات روحية لها ليس لهم حجة إلا أنهم يعملون بحسب قانون تقابل عالم الصور مع عالم المعاني، وبذلك حتى لو قصّ ملحد قصة نستطيع أن نبحث فيها عن معاني روحية، إذ أينما تولّوا فثمّ وجه الله.

أمّا القرآن فله شأن آخر مختلف تماماً عن كل هؤلاء، وهذا ليس كلام عاطفة إيمان ولكن كلام تحقيق وعرفان. فالقرآن كما سنرى يفصّل القصة من قبل نشوئها إلى بعد آثارها، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وأول ما يستلفت نظرنا هو وجود سورة اسمها "القصص". ومعلوم عند أهل القرآن أن أسماء سور القرآن هي تعبير عن أهم الأمور في العوالم كلها التي لا غنى لأحد عن فهمها ودراستها. وجعله سورة اسمها القصص يعني أهمية القصص العظيمة في العالم كله.

وقد وردت كلمة "قصص" ومشتقاتها ٣٠ مرة في القرآن. ومعلوم أن ٣٠ هو رمز على الشهر الذي هو ٣٠ يوماً. والشهر هو الإعلان والإظهار من الإشهار. فكون كلمة قص وردت ٣٠ مرة يدل ذلك على أن كل مراد القرآن كامن في قصص القرآن، {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}.

يقول القرآن: {لقد كان في قصصهم عبرة} ويقول: {أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون} فجعل القصة كالرؤيا في المنام يجب أن تعبّر، والعبور هو الذهاب من الصورة الجسمانية إلى الفكرة المجردة العقلية، تشبيهاً بالجسر الذي يعبره الإنسان من أحد جهاته إلى الجهة المقابلة.

ويقول يزيد التفصيل: {نحن نقص عليك أحسن القصص} ويقول: {الله نزّل أحسن الحديث} وقال عن الحديث: {ويعلمك من تأويل الأحاديث} والحديث هو من الحدوث أي الجديد من الأمور. وكل محدث له سبب أحدثه أو أكثر. والتأويل هو اكتشاف الأسباب الأولى وراء الجديد. وهنا ربط بين القصص والحديث وجعل وسيلة فهمه هو التأويل.

وهذا هو جوهر القصص في كل مكان وزمان، أنها رموز لأمور عقلية في حقيقة الأمر. والتأويل هو السبيل لفهمها. وكل المحاولات التي تريد أن تجعل للكتب المقدسة قيمة هي باستعمال هذا التأويل الذي يعلمه الله هنا لفهم القصص المروية في تلك الكتب. فالله يعلم أنه علينا أن نحلل القصة كما نحلل الأحلام. ومن له علم بتحليل الأحلام ويدرك تماماً ما أقول، ومن ليس له علم إن شاء أن يفهم عليه أن يطلب ذلك العلم. فإنه النبوة نفسها، وهل كان ليوسف علم غير تأويل الأحاديث.

ومعرفة العوالم الأربعة أساس تعلّم تأويل الأحاديث، الآفاق، والنفس، والملكوت الحق، والأسماء. ووحدة لوجود هي كل هذا التكثر في وحدة واحدة لا ثاني لها. فلو كانت القصة عن رجل قابل امرأة وتزوجها. فهذا من عالم الآفاق. والتأويل أن تبحث عن هذا المعنى في نفس الإنسان، فالقلب هو الرجل أنه يرمز إلى العطاء، والجسم هو المرأة لأنه يرمز إلى الأخذ. والتزوج هو اجتماع القلب والجسم في كيان واحد هو النفس. وما أشبه وما هذا إلا مثال بسيط. ثم

البحث عن معنى ذلك في عالم الملكوت. ثم في الأسماء الحسنى التي تمد هذه الظاهرة بالقوة إذ لا قوة إلا بالله. ثم بالرمز الوجودي في هذا المثل.

يقول: {ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون} وهنا يزيد تفصيل كون القصص أمثال عامة لها صفات عامة مجردة. كل من تنطبق عليه الصفات فالقصة قصته هو. وكشف هذه الصفات ومصداقها هو من علم التأويل.

ولو تتبعنا معاني كلمة "قص" وتصريفاتها فلن نجدها تخرج عن ما سبق أن ذكرناه فلا نعيده ونطيل بلا طائل.

فالقصة كالرؤيا تحتاج إلى تأويل لمعرفة الفكرة التي فيها وتسلسل ظهورها في العوالم. من الوجود إلى الأسماء إلى الملكوت إلى الأنفس إلى الآفاق، أو بالعكس. {فكان قاب قوسين أو أدنى} فقوس الصعود من الآفاق إلى الوجود، وقوس النزول من الوجود إلى الآفاق. وكل درجة تحوي في باطنها ما قبلها، وتنبئ عما بعدها. عن ما قبلها باليقين، وعن ما بعدها بالتخمين الذي يقلّ كلما ازداد الإنسان رسوخاً في مقام {ذي قوة عند ذي العرش مكين}.

الرابع : استعمالات القصة

١-المعرفة قائمة على تراكم التجارب والاستنباط منها. والتجربة الواحدة قد يستنبط منها إنسان القرن الأول أمر ما، ثم يأتي إنسان القرن العاشر فيستنبط من نفس التجربة أمر آخر، ثم في القرن العشرين أمر ثالث، وهكذا، وكل هذا من نفس التجربة أو الظاهرة. القصة هي خزانة تحفظ التجربة. وهذا أهم استعمال للقصة. فبتطور معرفة الناس يستطيعون أن يدرسوا الظاهرة القديمة زمنياً بطريقة أخرى أشمل وأعمق من قبل.

في الأشياء والظواهر الطبيعية نستطيع أن نلاحظ ونجرب كما نشاء، أما في الأمور الإنسانية فيجب أن لا نجرب على البشر قدر المستطاع، بل أن لا نجرب أصلاً. فمثلاً لو أردنا أن نفهم ظاهرة الطغيان، فهل ننصّب طاغية أو ندعم حكماً فرعونياً، ثم ندرس الظاهرة، أم ننسج قصة تاريخية أو خيالية حول هذه الظاهرة التي وقعت في زمن ما، وكفى هذا البلاء الذي وقع على الناس، ونروي هذه القصة وندرسها حتى نكتفي بذلك عن إعادة التجربة؟ ولذلك كانت القصص أساس المعرفة الإنسانية، لأنها تجنّب الآخرين ألم المرور بتجربة قد مرّ بها الأولين. بالطبع مع مراعاة الظروف والفروق.

٢-من طرق تجنب المذمة والملامة هو أن تنسب مقولاتك إلى غيرك، فمثلاً لو وقف رجل وسط الشعب المقهور تحت حكم طاغية وقال: "إن هذا طاغية يجب أن لا نسكت عنه وإلا كنا من عبدة الأصنام وسندخل النار" فإنه ولاشك سيصبح في باطن الأرض فور أن ينتهي من كلامه، أو حتى قبل ذلك. لكن لو قرأ عليهم قصة موسى وفرعون، فلا لوم عليه، بل بارك الله فيه وسيجازيه الله عن الحرف بعشرة أمثاله، وسيسمع الناس بخشوع ثم يقولوا: {صدق الله العظيم}.

فالقصة حجاب للاعتقادات والدعوات، فالذي يروي قصة مرموزة ولا تعجب الناس أو الحكومات فإن أسوأ ما يقال له أن هذه القصة سيئة، ولكن بالطبع إذا عرفت الحكومات مكر الراوي فلعله سيلحق هو الآخر بباطن الأرض. وقد يكون العالم يريد أن يخفي علم ما عن فريق معين من الناس، فيلبس دعوته ثوب قصة لا يستطيع فهمها غير من يريد هو أن يفهموها. وقد يريد الشخص أن يعلم الناس شيئاً، ولكنه يعلم أنه إذا صارحهم به فوراً بتجريد فإنهم على الأغلب لن يفهموا أو لن يقبلوا، فيقوم باختلاق قصة، يكون مضمونها تقرير هذا الأمر الذي يريد أن يعلمهم إياه. فإذا اقتنعوا كان بها، وإن رفضوا واستنكروا فلا ذنب عليه ولكن ذنب بطل القصة لا بارك الله فيه، فالقصة وسيلة جيدة لنشر التعاليم بدون تحمل المسؤولية، أليس ناقل الكفر ليس بكافر.

٣-إن نفس الإنسان مدفوعة بالراحة والكبر، والقصص تشبع هاتين الغايتين. أما الراحة فلأن القصة تعلّم أمراً ما على طبق من ذهب، فبطل القصة قد غامر وجرّب وتألم واستنتج، والمستمع إلى القصة يتخيلها وينتفع بها وهو متكئ على أريكته.

وأما الكبر، فلأن شهود الحياة من فوق هو من صفات الله العلي، فعندما تقص على الإنسان قصة يشعر بعلو ما في نفسه، وهذا شعور جميل يحبه كل أحد.

والقصة مادة للتفكير، ومعلوم أن راحة الجسم في السكون ولكن راحة العقل بالحركة، أي التفكير، فالجسم يتعب إذا كثرت حركته ولكن العقل يتألم إذا كثر سكونه، ولذلك غالباً ما يصاحب الاكتئاب غباء في المكتئب، فراحة العقل في التأمل في العلم، أي دراسة التجارب وتحليل الظواهر، والقصة مادة لهذا التأمل، فهي إذن من أسباب راحة الإنسان.

وتوجد ظاهرة جديرة بالملاحظة، وهي أن الإنسان كلما عرف عن حياة العلماء والقادة وغيرهم كلما كبرت نفسه وتوسعت آفاقه، فكأنه يضيف حياة هذا الذي عرف عنه إلى حياته هو.

فالقصص من أسباب إشباع رغبتي الراحة والكبر. وهاتان الرغبتان أساس نفس كل إنسان، وهذا من أسباب وجود القصة أينما وجد الإنسان.

فإذن نخلص إلى أن القصة تستعمل لكي تكون خزانة للتجارب، وحجاب على التعاليم والدعوة، ومن وسائل إشباع رغبتي الراحة والكبر.

الخامس : تأثير القصة

كلما قلّت معرفة الإنسان بالعالم زاد تأثير القصص فيه. لأن القصة تعبر عن علاقات بين أشياء، كعلاقة السببية، فمثلاً قصة تقول أن صبياً صغيراً خالف أمر أمه وبسبب هذه المخالفة جاء الغول في الليل، لاشك أن الصبي إذا سمع مثل هذه القصة سوف يطيع والديه كأحسن ما تكون الطاعة، لأنها كونت في نفسه علاقة سببية بين العصيان وظهور الكائن المتوحش. وهذا مثال بسيط، ولكن هذا هو الأصل في كل أنواع القصص مهما تعقدت، ولكن كلما زاد عمر الإنسان وعلمه وجب أن تصبح القصة أكثر عمقاً وواقعية حتى تؤثر فيه التأثير المطلوب.

والتأثير هو التغيير الأفكار أو وضع أفكار، ومحلّه هو "تصور الكمال" الذي عند كل إنسان، ومعلوم أن تصور الكمال لا يحري إلا إيجابيات، فتحقيق الشبع أو تحقيق العدل وما أشبه من تصورات الكمال. وتصور الكمال يأتي من أعراف المجتمع الذي يسكن فيه الشخص، ومن تجاربه الشخصية. ولكن مهما كان، فيجب أن يوافق أعراف المجتمع لكي يجهر به الشخص وإلا تعرض لسوء في أكثر الأحيان. ولذلك فإن القصص التي يوافق مضمونها أعراف المجتمع وعقائده تكون أكثر تأثيراً في أفراد هذا المجتمع. فقصص الملاحدة لا تؤثر أو لا تلقى قبولاً في مجتمع بالمؤمنين بالله وهكذا.

ولما كانت الراحة والكبر أهم بل هي رغبة كل إنسان ولا رغبة غيرها، فإن القصص التي تصور الراحة والكبر تلقى قبولاً في كل إنسان، ولو لاشعورياً، فمثلاً، عندما تصور الأفلام أن تاجر مخدرات عنده من القصور والنساء والسيارات وكل ما يشاء يأتيه بطرفة عين، فإن مثل هذا سيؤثر في المشاهدين، خاصة الشباب الطامح لدخول الحياة العملية والاستقلال المالي عن أبويه. ولكن إذا أظهر الفيلم بعد ذلك أن تاجر المخدرات الثري انقلب عليه أعوانه، وزج في الجسن، فإن هذه الفكرة ستصبح مكروهة مرفوضة من المشاهدين، فما الفائدة في الحصول على المال في البداية إن كنت سألقى في السجن في النهاية.

ومن أراد أن يدخل في "تصور الكمال" عند أحد من الناس شيء أو فكرة، فعليه أن يصوغها بطريقة تجعل فكرته تحقق رغبة الراحة أو الكبر أو كلاهما. وهذا ما يفعله كل الناس ولو لاشعورياً. فكل قصة، أي قصة، عند تحليلها والوصول إلى جوهرها النهائى، سنجد أنها إما تدعوا إلى تحقيق الراحة عن طريق القيام بعمل ما أو اعتقاد ما أو تحقق الكبرياء عن طريق عمل ما أو اعتقاد ما أو كلاهما، ولا يشذ عن هذه القاعدة شيء على الإطلاق.

الصغار أسهل الناس قبولاً لأي تأثير، لأن عقولهم خالية من المقاومة النقدية التي عند الشباب والكبار، ولذلك يمكن تنشئة الصبي على أن يكون في أسفل سافلين أو أعلى عليين بنفس الجهد.

ومن هنا اشتهرت "قصص الأطفال" لأنهم يريدون أن يزرعوا فيهم مبادئهم العقائدية، والاجتماعية منذ البداية. وهذه القصص تبقى في الشخص، وتنتج آثارها شعورياً أو لاشعورياً. وأنا شخصياً لا أزال أذكر قصة السلحفاة والأرنب. والتي خسر في السابق الأرنب لأنه اعتمد على سرعته وتكاسل ونام ظناً أن السلحفاة بطيئة ولا يمكن أن تسبقه، ولكن السلحفاة سبقته لأنها كانت تسير بخطوات بطيئة ولكن مستمرة. وحتى يومي هذا لو نظرت في أكثر أعمالي وجدتها تتأثر بهذا المبدأ الذي أخذته من الطفولة، بل وقمت بتمثيل مسرحية كنت أنا السلحفاة وصديقي هو الأرنب. فتأثير القصص على الصغار مطلق.

ثم الشباب، وهؤلاء عادة يريدون الكبر أكثر من الراحة ولذلك نراهم يمارسون الرياضة المتعبة، كرفع الأثقال والملاكمة وما أشبه، فهم يريدون تحقيق رغبة الكبر ويضحون في سبيل ذلك بالراحة، لفرط نشاطهم وإقبالهم على الحياة باستقلالية جديدة. فقصص الراحة لن تلقى قبولاً مطلقاً عند الشباب، ولكن قصص الكبر لها تأثر أكاد أقول مطلق عليهم.

ثم المتزوجون، وهؤلاء يريدون الاستقرار لأهلهم، ولذلك تخف فيهم رغبة تحقيق الكبر، ولكن تحقيق الراحة تصبح الأولوية الكبرى> ولذلك ينزعون إلى الاستقرار الوظيفي بدل المغامرة والمخاطرة، وينزعون إلى الخضوع للحكومات الظالمة بدل الثورة التي قد تودي بحياتهم قتلاً أو سجناً مما يضرّ براحة أهلهم. فكل ما يجلب الراحة من القصص له تأثير شبه مطلق على هؤلاء.

ثم العجائز، وهؤلاء قد لا يحبون أن يسمعوا القصص لأنهم لن ينتفعوا بها إذ حياتهم أوشكت على النهاية، أو قد يسمعون القصص التي تبث فيهم أمل الحياة بعد الموت، أو أي نوع من القصص للتسلية فقط، وبما أن غاية القصص الكبرى هي العمل، والعجائز لا يعملون إذ يعيشون فترة التقاعد، فتأثير القصص عليهم ليس مهماً أصلاً، وخير ما يقال لهم هو ما يجلب الأمل الذي يحبونه بعد الموت.

وكقاعدة عامة. القصة التي تؤثر هي التي توافق رغبة السامع. فحسب الرغبة يكون التأثير.

الخاتمة

القصة كالرب، مع الإنسان أينما كان، ويعطيه بحسب استعداده. {فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون}.

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.